الفَصْلُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثون

ساسانيون وبيزنطيون

حدث تطور خطير في الشرق الأدنى بعد الميلاد، فقد زالت حكومة (البارثيين) (الفرث) (البرث) The Parthians ، في حوالي سنة (٢٢٦ ب. م.) ، وحلت محلها حكومة عرفت بحكومة (الساسانيين) . وهي حكومة نبعت من ثورة على الحكومة السابقة، تولى كِبْرَها ملوك اقوياء اظهروا حزماً وشدة جعلت الروم يهابونهم ، ويرون انهم مكافئون لهم في القوة . ولم يكن الروم ينظرون الى (الفرث) بهذه النظرة من قبل[1] .

وحدث تطور مشابه في امبراطورية (رومة) ، فقد انقسمت الامبراطورية الى قسمين ، وصارت (القسطنطينية) عاصمه للجزء الشرقي، الذي كوّن الامبراطورية (البيزنطية) ، وذلك في سنة (٣٣٠ م) ، وتولت هذه الامبراطورية إرث النزاع مع الفرس، النزاع الموروث من الاسكندر . واصبحت بحكم وجودها في بلاد الشام وفي مصر على اتصال بالعرب في البر وفي البحر .

وكان لا بد للساسانيين والبيزنطيين من التعامل مع العرب ، ومن استرضائهم، ووضع حساب لهم . فقد كانت لكل من الامبراطوريتين حدود واسعة طويلة معهم كما كان في كل من الامبراطوريتين قبائل ذات شأن نازلة في ارضها في مناطق

---

١ J. B. Bury, History of the later Roman Empire, Vol., I, P. 90.
وسيكون رمزه : Bury

حساسة هي حافات الحدود . واما البادية : بادية الشام التي تملأ الهلال الخصيب، فقد كانت مملوءة بقبائل عربية تعرف عند الروم باسم Saracens و Scenites ، وتعني الكلمة الأخيرة سكان الخيام ، او اهل الخيام ، وهي كما قال احد المؤرخين (الكلاسيكيين) في تنقل مستمر وحركة دائمة من مكان الى مكان[1] . اذا وجدت ارضاً خصبة عاشت عليها ، والا كسبت معيشتها بالغزو . تغير على ارض الفرس او الروم ، فاذا جابهتها قوة ، تقهقرت الى البادية حيث يعسر على غير الأعراب ولوجها لتأديبهم . ولهذا لم يكن امام الحكومات الكبيرة الا استرضاء تلك القبائل ، لصيانة حدودها والاستفادة منها في إلقاء الرعب في قلوب الأعداء والخصوم[2] .

وسلك البيزنطيون السياسة التي سلكها حكام (رومة) من قبلهم،وهي سياسة التقرب الى سادة (أكسوم) ، وعقد اتفاقيات ود وصداقه معهم، لضمان مصالحهم وللضغط على حكام السواحل العربية المقابلة لهم لجلبهم الى جانبهم ولمنعهم من التحرش بسفنهم وبتجارهم الذين كانوا يرتادون البحار الى الهند والسواحل الافريقية ويقيمون في مواضع من السواحل والجزر على شكل جاليات ، كما هي الحال في جزيرة (سقطرى) . وقد نجحت سياستهم هذه نجاحاً ادى الى غزو الجيش لليمن بتحريض من الروم فيما بعد .

وسلكوا سياسة حكام (رومة) ايضاً في تقوية حدود بلاد الشأم وضمان سلامتها من غارات الأعراب أو الفرس عليها ، ببناء سلسلة من الاستحكامات في البوادي وفي مفارق الطرق المؤدية الى تلك البلاد ، وبتقوية (خطة ديوقليطيان) Diocletian الدفاعية الشهيرة التي وضعها ، بالدفاع عن الحدود من مصر الى نهاية الفرات وفي جملتها تحصين مدينة (تدمر) قلب الدفاع ، والمواقع العسكرية الأخرى المقامة في البادية ، لتكون الموانع الأولى للأعراب من مهاجمة بلاد الشأم، والرادع الذي يردعهم عن التفكير في الغزو[3] .

وفي جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير في الشرقيين ، وفي جملتهم

---

١ Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum, Bk., XIV, 4, I.

٢ Bury, I, P. 95.

٣ John Malalas, XII, P. 308, Bury, I, P. 96, Arabien, S. 23.

العرب ، نشر النصرانية ، الديانة التي قبلوها ودانوا بها ، واتخذوها ديانة رسمية للدولة . وفي نشر النصرانية تقويـــة لنفوذهم ، وسنـــد لسياستهم في نزاعهم مع الساسانيين . ولهذا نراهم يشجعون إرسال البعثات التبشيرية والارساليات الدينية الى افريقية والى بلاد العرب والى الهند،وينفقون بسخاء لبناء الكنائس في تلك الأرضين يرسلون الخشب النفيس اللازم للبناء ، و (الفسيفساء) التي امتازوا بصنعهـــا ، والعمال الروم المهرة في البناء،ليبنوا كنائس فخمة جميلة تبهر العيون وتقر الأفئدة، وتؤثر في العقول ، فتجلب اليها الناس وتستهويهم ، وهناك يتلقاهم المبشرون الذين أوفدوا للتبشير،بتلقينهم النصرانية والاخلاص لإخوانهم في الدين وفي طليعتهم الروم بالطبع،وفي ذلك كسب سياسي عظيم. وبذلك صارت(الكنائس)دوراً لعبادة الله،ودوراً للتبشير السياسي والثقافي،ومركزاً من مراكز الاستعلامات والتبادل الثقافي في مصطلح هذا الزمن.

وتمكنت النصرانية من كسب بعض العرب،فجرتهم اليها . جذبت اليها القبائل الساكنة على حدود الأرياف والأطراف ، اي سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة الى الخطط السياسية والعسكرية للساسانيين وللبيزنطيين على حد سواء . وقد كان من سوء المصادفات أن النصرانية كانت قد تجزأت الى شيع ، وان غالبية النصارى العرب تمذهبت بمذهب يخالف مذهب الروم ، ولكنها كانت تشعر على كل حال أنها مع الروم على دين واحد. ولهذا لم يحفل ساسة (القسطنطينية) كثيراً بموضوع اختلاف المذهب ، وان تألموا من وجوده وظهوره،فساعدوا نصارى اليمن ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم ، وعملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب ، ليتمكنوا بذلك من ايجاد محيط ثقافي سياسي يؤيد البيزنطيين .

وعني الساسانيون بتقوية حدودهم مع البادية كما فعل البيزنطيون ، وكما فعل (الفرث) وغيرهم ممن حكم قبلهم . وسعوا في استرضاء سادات القبائل وأصحاب السلطان من حكام البوادي ، وبنوا (المسالح) في المشارف المؤديـــة الى أرياف العراق لحمايتها من الغزو ، ولتقوم بتأديب الأعراب ومراقبة حركاتهم وتجمعاتهم، لتكون الحكومة على علم بما يريدون فعله ، ووضعوا في الخليج سفناً لحماية سفنهم من التحرش بها ، ولحماية حدودهم الجنوبية الواقعة على الخليج من التعرض للغزو واقام (أردشير الأول) (٢٢٥ – ٢٤١ م) ، عدة موانىء بحرية ونهريـــة لهذا الغرض .

وتقابل هذه (المسالح) ما يقال له (المناظر) في عربيتنا بالنسبة الى حماية بلاد الشأم . فقد كان اليونان والرومان ثم البيزنطيون قد اقاموا خطوطاً Limes من التحصينات اسكنوا بها حاميات ألقوا عليها مهمة الدفاع عن الحدود . وهي تتكون من قلاع Castella ومن حصون (ابراج) Burgi ومن Centenaria و Turres . وخطوط التحصينات هذه ، هي (المناظر) عند العرب و (المسالح) بالنسبة لخطوط دفاع الفرس. وواجبها حماية ما يليها من تحصينات اخرى وحاميات اقيمت على (الخنادق) في الامبراطورية الساسانية ، او ما يقال له Fossatum عند الروم . فهي الخطوط الأولى من خطوط الدفاع . اما الذين يقومون بحراستها وبالدفاع عنهـا ، فانهم لا يتقاضون اجـراً ، اي رواتب على عملهم ، لأنهم Limitanei كما يقال لهم في اليونانية . ومعاشهم مما يزرعونه بأنفسهم ، او يدفع لهم من غلاّت الفلاحين الذين يعفون من دفع مـا عليهم من استحقاق للدولة . اي ما نسميه بضرائب Capitatio . وينتخب هؤلاء من السكان المحليين،ليكون من السهل عليهم السكن في هـذه المواضع البعيـدة . وعليهم مشرفون من الفرس او الروم لتوجيههم ولقيادتهم في اثنـاء وقوع غزو او تحرش قبائل بهـذه الخطوط[1] .

وشجع الساسانيون مذهب (نسطور) مع انهـم كانوا مجوساً ، ولم يكونوا نصارى . شجعوه لأنـه مذهب يعـارض مذهب الروم ، فانتشر في العـراق وفي ايران وفي سائر الأرضين الخاضعة للحكم الساساني . ودخل في هذا المذهب اكثر النصارى العرب في العراق . ومن يدري ؟ فلعلهم ساهموا من طرف خفـي في توسيع الشقة بين هذا المذهب ومذهب الروم ولإلقاء العداوة بـين هؤلاء النصارى والروم .

كانت بادية الشأم ميداناً للقبائل ، تتصارع فيه كيف تشاء . تبرز فيه قبيلة ، ثم ينطفىء اسمها ، لتظهر قبيلة اخرى . ولم يكن ذلك ليهم الدول الكـبرى ، ما دام ذلك الصراع في مواضع بعيدة عن حدودها ، فإذا بلغ الحد ، اضطرت تلك الدول الى الوقوف بحزم وصرامـة أمامه ، اذا كانت تملك الحزم والقوة .

---

١ Die Araber, II, S. 350, Altheim — Stiehl, Finanygeschichte der Spätantike, 31. ff., 117,. f., 162, f.

ولصعوبة قيام جيوشها النظامية بتعقب القبائل المغيرة وملاحقتها في البادية ، عمدت الى استرضاء سادات القبائل الكبيرة ذات العدد الكبير ، بالهدايا والمنح المالية المغرية وبالامتيازات وبالألقاب للقيام بحراسة الحدود ومراقبتها ، وبتعقب القبائل التي قد تتجاسر فتغزو الحدود ، منتهزة مواطن الضعف والثغرات . فالتجاء الساسانيون الى عرب (الحيرة) ، والتجأ البيزنطيون الى الضجاعمة والى اهل تدمر والغساسنة فيما بعد للقيام بهذه المهمة .

ولم تكن مهمة حفظ الحدود مهمة سهلة هينة،حتى على اهل البادية انفسهم ، فمنطق القبائل : ان القبيلة اذا كانت قوية ذات بأس ، وشعرت بقوتها ، جاز لها ان تطلب لنفسها ما تشاء وان تغزو من تشاء كائناً من كان . وطالما صار من توكل اليه حراسة الحدود نفسه هدفاً للغزو ، لأنه لم يطعم الغازين، ولم يقدم لهم ما يرضيهم من ترضيات واعطيات ، او لأن الغازين رأوا في قرارة انفسهم انهم أحق بحماية الحدود من الذين يقومون بحمايتها في هذا الزمن ، ولهذا يرون وجوب انتزاعها منهم بالقوة ، كما انتزعها هؤلاء القائمون بالحماية ممن سلفهم . فلا يكون امام الدول الكبرى غير الموافقة والتسليم ، ودفع الجعالات التي كانوا يدفعونها الى الحرس القديم ، الى الحرس الجدد الذين اظهروا قوة فاقت قوة القدماء في ميدان التنافس والقتال . وما الذي يهم الدول الكبرى في مثل هذه المواقف غير حماية الحدود ؟

ومع رغبة الدول الكبرى في التعامل جهد الامكان مع اصحابهم القدماء الذين اطمأنوا اليهم ، فأوكلوا لهم حراسة حدودهم ، وكانوا يهددون ذلك الحرس بجعل حراستهم الى خصومهم ومنافسيهم إذا ما شعروا بسوء نيتهم أو طمعهم أو إلحافهم في زيادة الجعالات ، او بضعف او تهاون في الدفاع عن الحدود وفي انزال القصاص بالمغيرين . وقد يوكلون الحراسة في الحالات الشاذة الى قوادهم الأشداء ، لتعقيب المغيرين ، وانزال ضربات شديدة بهم ، الى ان يتفقوا مع حارس جديد او ان يتفق اهل الحارس القديم على اختيار شخص جديد كما في حالات وفاة احد رؤساء آل نصر او آل غسان .

وليس من الصعب بالطبع على حماة الحدود ادراك الأدوار الخطيرة التي يقومون بها ، والخدمات الكبيرة التي كانوا يؤدونها للدولة التي يتولون حماية حدودها وضبطها من غارات الأعراب عليها . ولهذا صاروا يتحينون الفرص السانحة والظروف

المؤاتية لارغام الدولة عـلى رفع جعالاتهم ولزيادة امتيازاتهم ، والا أضربوا عن الحراسة ، وأثاروا الأعراب عليهم،وهاجموا هم انفسهم تلك الحدود حتى تجاب مطالبهم او يسترضوا ، وعندئذ يقبلون بالعودة الى عملهم . وفي تواريخ المناذرة والغساسنة ، أمثلة عديدة من امثلة خروج امراء هاتين الحكومتين على الساسانيين والبيزنطيين ، لعدم تلبية مطاليبهم في زيادة الجعالات وفي الحصول على امتيازات جديدة تزيد على امتيازاتهم السابقة الممنوحة لهم .

وكان من نتائج العداء الموروث بين الساسانيين والبيزنطيين ان انتقلت عدواه الى العرب أيضاً ، فصار اناس منهم مع الفرس ، وآخرون مع الروم ، وبين العربين عداوة وبغضاء ، مع انهما من جنس واحد وكلاهما غريب عن الساسانيين والبيزنطيين . وقد تجسمت هذه العداوة في غزو عرب الحيرة للغساسنة ، وفي غزو الغساسنة لأهل الحيرة ، حتى في الأيام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم، مما أدى احياناً الى تكدير صفو السلم الذي كان بين البيزنطيين والساسانيين ، وتجسمت في شعر المدح والهجاء الذي نجده في حق آل نصر او آل لخم ، من الشعراء الذين وجدوا في هذه البغضاء متسعاً لهم ومفرجاً في الرزق . فصار بعضهم يساوم في أجور المدح وفي أجور الذم .

وقد انتهت حدود الأرضين التي خضعت لحكم البيزنطيين او سلطانهم عند حدود (المقاطعة العربية) الجنوبية ، فلم تتجاوزها الى ظهور الاسلام . ولعل محاولة (أبرهة) الاستيلاءَ على (مكة) كانت خطة سياسية عسكرية من خطط البيزنطيين كانت ترمي الى الاستيلاء على الشقة التي بقيت تفصل بين الروم والحكم الحبشي في اليمن ، فيبسط بذلك البيزنطيون سلطانهم السياسي على العربية الغربية كلها وعلى قسم كبير من العربية الجنوبية ، ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يبغون من بعد ذلك احتلال العربية الجنوبية كلها ، لغرض سيطرتهم على اهم جزء من خطوط الملاحة البحرية العالمية المؤدية الى الهند والسواحل الافريقية .

اما فيما عدا ذلك من جزيرة العرب ، فلم يكن للبيزنطيين سلطان سياسي او تدخل فعلي . ولهذا انفردت فعالياتهم السياسية والعسكرية مع العرب النازلين في الأرضين التي خضعت لحكمهم ولسلطانهم ، ومع عرب بادية الشأم وعرب العراق .

ولا نعلم ان ملوك الروم كانوا يرسلون قوافل تجارية خاصة بهم ، لتتاجر مع جزيرة العرب ، او ان حكـام مقاطعاتهم في بـلاد الشام كانوا يتاجرون باسم حكومتهم او بأسمائهم مع بلاد العرب. وكل ما نعرفه هو ان التجار العرب كانوا هم الذين يرسلون القوافل الى بلاد الشام فكانت اذا دخلت مناطق الحدود ، تؤدي ضرائب المرور و (المكس) الى رجال (مصلحة الضرائب) التابعين للروم. وعندئذ يسمح لهم ان يذهبوا الى الأسواق لبيع ما يحملونه وشراء ما يحتاجون اليه . وكانت (بصرى) حاضرة (المقاطعة العربية) ، هي السوق الرئيسية للتجـار العرب ، ومنتهى قوافلهم في الغالب . فكانت علاقة اهل الحجاز ، ولا سيما اهل مكة ، بالروم علاقة اقتصادية . وعلى هذه العلاقة كانت تتوقف العلاقات السياسية في غالب الأحيان . فقد كان الروم يزيدون الضرائب احياناً،ويتعسفون في الجباية، فيتضرر بذلك التجار العرب ، فكانوا يشتكون ، ويراجعون حكـام المقاطعات ، وقد يرفعون الى كبار القادة والحكام التماساً ، او يرسلون الى عاهل القسطنطينيـة رسلاً ، كما تقول بعض روايات اهل الأخبار للتوسل برفـع هذه المظالم عنهم ولتخفيض الضرائب ، وتنتهي مثل هـذه الشكايات بترضيات يراد بها ان تكون ترضيات سياسية ، لتوجيه عرب الحجاز ضد الفرس ، او لفتح المجـال لتجار الروم بالمرور من الحجاز الى الجنوب ، أو للضغط على التجار لمنع القبائـل من التجاوز على حدود الروم الى ما شاكل ذلك من أمور .

أما ملوك الساسانيين ، فقد كانوا يتاجرون مع العرب.يشترون منهم ويبيعونهم ويرسلون القوافل بأسمائهم الى العربية الجنوبية ، لبيع ما تحمله في أسواقها،ولشراء سلع العربية الجنوبية يحملونها الى أسواق العراق . وقد كانوا يوكلون حراستها الى جماعة يختارونهم من سادات القبائل المهيبين المعروفـين ، بجُعْـل يدفعونه لهم . وسأتحدث عن ذلك فيما بعد . ولا أستبعد ان يكون بين تلك القوافل ، قوافـل حملت ما كان يرسله الأكاسرة الى عمالهم في اليمن بعد استيلائهم عليها من مؤن وبضائع ، لتعود بما يفضل من الجباية التي يجبيهـا مرازبتهم على اليمن ، لتكون حصتهم وحصة الخزينة من مال اليمن .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان جماعة من أهل مكة قد تخصصت بالاتجار مع العراق . وقد كان لها تعامل مع كسرى وربما مع كبار رجال دولته أيضاً من أولئك الذين اقتدوا بملوكهم في الاشتغال بالتجـارة وبالنزول الى الأسواق . فإنا

نجد أناساً من كبار تجار مكة كانوا يفدون على المدائن، ويتصلون بديوان كسرى، ويتعاملون هناك بيعاً وشراءً . وكانت لهم دالة على ملك المدائن ، وربما كان يساعدهم هو نفسه في مال القوافل ، او يجعل له نصيب من الأرباح .

أما حدود الدولة الساسانية مع البلاد العربية ، فلم تكن ثابتة ، بل كانت تتبدل وتتغير بحسب الظروف والأحوال . فقد كانت تتوسع أحياناً ، وتتراجع وتتقلص احياناً اخرى . كان الساسانيون يتقدمون نحو الجنوب في اتجاه (العروض) وبقية الأقسام الشرقية من جزيرة العرب حين تكون لهم قوة بحرية كافية ، وكانوا ينسحبون منها حين تضعف هذه القوة ، وحين تلهيهم الأحداث الداخلية وحروبهم مع الروم عن التفكير في الجنوب . وقد كان العرب في عهد الساسانيين وقبله قد استوطنوا السواحل الجنوبية من ايران ، وهيمنوا عليها ، وكان لقبائلهم أثر خطير هناك ، ولا سيما قبل ان تكون الدولة الساسانية ، إذ وجدوا في انشغال الدولة اذ ذاك في المنازعات الداخلية فرصة ملائمة لهم ، فبسطوا سلطانهم على مناطقهم مثل (كرمان) Karmania وغيرها[1] ، ولهذا كان اول ما فعله مؤسس الدولة الساسانية (أردشير الأول) (٢٢٤ – ٢٤٠ م) ، (٢٢٥ – ٢٤١ م) (٢٢٦ – ٢٤١ م) أن حارب عرب هذه الأرضين ليخضعهم الى حكمه ، في جملة سياسته التي قررها . وهي القضاء على الإقطاع وعلى الإمارات التي تعددت في هذا العهد نتيجة ضعف الحكومة .

فورد ان (أردشير) سار بعد ان تغلب على خصومه في ايران ، لقتال ملك (الأهواز) ، فغلبه في معركة حاسمة ، واستولى على ولايته ، ثم سار نحو (ميسان) ، وكان حاكمها عربياً ، فاستولى عليها[2] ، وبذلك خضع له العرب الساكنون في المناطق الجنوبية من بلاد ايران .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ان (اردشير) ابتنى مدينة بالبحرين سماها (بتن اردشير) ، «وإنما سماها بتن اردشير لأنه بنى سورها على جثث أهلها ، لأنهم فارقوا طاعته ، وعصوا امره ، فجعل سافاً من السور لبناً ، وسافاً جثثاً ، فلذلك

---

١ Die Araber, I, S. 38.

٢ ارثر كريستينسن ، تعريب يحيى الخشاب والدكتور عبد الوهاب عزام ، ايران ، القاهرة ١٩٥٧ م (ص ٧٥) .

سماها اردشير»[1] . ويفهم من هذه الرواية الفارسية التي لا تخلو من الخيال ان اردشير كان قد استولى على البحرين . وقد ورد ان (أردشير) ، كان قد أنشأ عدة موانىء على الأنهار وعلى البحار[2] ، بعد ان قضى على مقاومة القبائل العربية النازلة في المناطق الجنوبية من ايران،وعندئذ صار من الميسور له ركوب البحر والاستيلاء على البحرين وعلى الأرضين العربية الأخرى من جزيرة العرب . ولهذا نص بعض الكتبة (الكلاسيك) عـــلى ان ساحل عمان Oman كان تابعاً للفرس يومئذ ، أي لحكم (أردشير)[3] .

وذكر الطبري ان (أردشير) بنى بالبحرين مدينة سمّاها (فنياذ أردشير) وقال انها مدينة (الخط)[4] .

ويفهم من تأريخ (الطبري) ان (عمرو بن عدي) ، وهو أول ملك من ملوك الحيرة ، كان « مستبداً بأمره ، يغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الأول ، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق ، ولا يدينون له ، حتى قدم أردشير بن بابك في أهـــل فارس »[5] . ولم يشرح (الطبري) صلته بـ (أردشير) . ولكن الذي يتعمق في دراسة معنى هذه العبارة يخرج منها بأن أردشير فرض سلطانه عليه ، وانه أطاعه ، فلم يعد يغزو المغازي،ويصيب الغنائم كما كان يفعل ايام ملوك الطوائف .

أما (سابور الأول) (٢٤١ — ٢٧٢ م)[6] : وهو ابن الملك (أردشير) مؤسس الدولة الساسانية ، فقد ذكر انه تلقن درساً مهماً في السلوك من (أذينة) ملك تدمر ، اذ يقولون انه لما تمكـــن من القيصر (فالريان) (فالريانوس) Valerian [7] وأسره وانتصر على جيشه انتصاراً كبيراً ، تملكه الغرور والعجب،

---

١ تأريخ سني ملوك الارض والانبياء (ص ٣٤) .
٢ العرب والملاحة (ص ٩١) .
٣ Die Araber, I. S. 37, 41, 56, 61, 109, 343.
٤ الطبري (٢/٤١) ، (طبعة دار المعارف بمصر) .
٥ الطبري (١/٦٢٧) (دار المعارف) .
٦ « ٢٤٠ — ٢٧٢ م » ، في بعض المراجع ،
Ency., Vol., 4, P. 178, Die Araber, II, S. 67.
٧ « أولارينوس » ، مختصر تأريخ الدول ، لابن العبري (ص ١٢٨) (بـيروت ١٨٩٠) .

وصار يشعر انه ملك الدنيا ، فلما أرسل اليـــه (أذينة) رسالة مع هدايا تحملها قافلة كبيرة من الجمال ، وصلت اليه في اثناء عودته منتصراً ، تملكه العجب من من تجاسر (أذينة) على مخاطبته بلهجة ليس فيها كثير من التعظيم والتفخيم والاحترام، وهو (ملك الملوك) و (أذينة) رئيس موضع في البادية ، فأخذته العزة وأمر برمي هداياه في (الفرات) قائلاً : « ومن هو أذينة Odenathus هذا ؟ ومن أي ارض هو حتى يوجه هذه الرسالة الى سيده ؟ فليأت حالاً اذا اراد ان يخفف من العقاب الذي سينزل به ، وليسجد امامي بعد ان توثق يداه الى ظهره ! » . فلما سمع (أذينة) بهذه الاهانـــة ، جمع ما عنـــده من قوة ، وأسرع فباغت الساسانيين مباغتة افزعتهم ، فوقع الرعب فيهم ، حتى تركوا له اكثر ما حصلوا عليه من غنائم من حربهم مع الرومان ، وفقدوا بعض زوجات الملك ، اذ وقعن أسرى في أيدي قوات (أذينة) . ولم يكتف ملك (تدمر) بهذا الانتقام ، بل اسرع في سنة (٢٦٣ م) فهاجم الجزيرة ، فانتصر على (سابور) ، ثم حاصر عاصمته (طيفسون)[١] .

وقد استمر الساسانيون في محاربة (أذينة) رجاء التغلب عليه والانتقام منه الى سنة (٢٦٥ م) من غير جدوى ، اذ قتل (أذينة) دون ان يتمكن (سابور) من أخذ الثأر منه[٢] .

ولما تغـــير الزمن ، واتبعت (الزباء) سياسة معادية للرومان ، وحاصرهـــا (أورليان) Aurelian . اتصلت بالساسانيين رجاء الحصول منهم على مساعدة عسكرية ، لتتخلص بها منهم ، إلا أن الملك (بهرام) لم ينجدهـــا ، فسقطت أسيرة في ايدي الرومان سنة (٢٧٢ م) ، واخذ نجم المدينة المهمة التي اتخذهـا (هادريان) Hadrian قاعدة عسكرية لحماية حدود بلاد الشأم من المغيرين ، في الأفول منذ ذلك الحين . وكان تقاعس (بهرام) عن مساعدة (الزبـــاء) من ضعف سياسة ذلك الملك : الذي لم يكن ذا همة في ادارة الملك[٣] .

---

١ Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol., I, P. 402.

٢ أرثر كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين (ص ٢١٣ فما بعدها) ، Ency., Vol., 4, P. 312, Pauly-Wissowa, 2, II, Reihe, I, 2328, 2331.

٣ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢١٥) ، Sykes, History of Persia, Vol., I, P. 207.

ولا نعلم شيئاً يذكر بعدئذ عن صلات الفرس الساسانيين بالعرب منذ عهد (بهرام الأول) الى عهد (سابور الثاني) (٣١٠ – ٣٧٩م) ، فالموارد صامتة لا تتحدث عنها بأي حديث ، الى عهد هذا الملك ، وانما هي تتحدث عن غارات قاسية أغارها هذا الملك على العرب في المنطقة العربية من ايران وفي الخليج العربي وفي العراق .

ويحدثنا (المسعودي) ، أن (سابور بن هرمز) المعروف بـ (سابور ذي الأكتاف) (٣١٠ – ٣٧٩م) ، كان قد أوقع في العرب موقعة عظيمة ، وذلك لأن القبائل العربية وفي طليعتها قبيلة (إياد) ، كانت قد غلبت على سواد العراق ، وأطبقت على البلاد ، ولذلك قيل لها (طبق) في ايام ملكها (الحارث ابن الأغر الإيادي) ، وكانت تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق ، فلما كبر (سابور) واخذ امور الملك بيده من مستشاريه ووزرائه ، إذ جاء الملك اليه بوفاة أبيه وكان في بطن أمه – اراد الانتقام من إياد ، واخضاعها للساسانيين ، كما كانت من قبل ، فأرسل سراياه نحوها ، وكان في حبسه رجل من إياد ، اسمه (لقيط) ، سمع بعزم سابور فأرسل اليها شعراً ينذرها به ، ولكنها لم تحفل بانذاره ، ففاجأتها جيوشه ، وأوقعت بهم ، فما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك اكتاف العرب ، فسمي سابور ذا الأكتاف [1] .

ويفهم من البيت الأول من شعر لقيط ، وهو قوله :

سلام في الصحيفة من لقيط على من في الجزيرة من إياد [2]

أن إياداً كانت قد استبدت في أرض الجزيرة ، وعصت الفرس هناك وكانت قد استوطنت منذ أمد فيها ، ولذلك حذرها (كسرى) .
واذا كان هذا البيت الذي نسب الى (علي بن أبي طالب) :

لقريب من الهلاك كما أهـ ـلك سابور بالسواد إيادا

---

١ مروج الذهب (١/٢١٥ وما بعدها) .
٢ الأغاني (٢٠/٢٤) ، الآمدي ، المؤتلف (ص ١٧٥) .

حقاً وصحيحاً ، فإن قوله هذا يكون أقدم مورد جاء فيه خبر ايقاع (سابور) بإياد [1] .

وفي خبر (المسعودي) وهمٌ وتسرع فإن الذي حارب إياداً وأنزل بهم خسائر فادحة ، لم يكن (سابور ذا الأكتاف) ، بل كان (كسرى انو شروان) ، او (كسرى بن هرمز) ، وان (كسرى) هذا ارسل جيشاً ضدهم ، وضعه بقيادة (مالك بن حارثة) ومعه قوم من (بكر بن وائل) فأرسل عندئذ (لقيط) اليهم انذاره فلم يحفلوا به ، فوقعت بهم خسائر كبيرة في (الحرجية) ، وفرّ قسم كبير منهم الى بلاد الشأم [2] .

وينسب بعض الرواة الشعر المذكور الى (عمرو بن جدي) ، ويرجع جماعة من الرواة ايام (لقيط بن معمر) الى ايام (كسرى أنو شروان) (الأول). وفي القولين دلالة على ان الأبيات الشعرية التحذيرية لا يمكن ان تكون قد أرسلت في ايام (سابور) المذكور ، بل في ايام ملك آخر حكم بعده بسنين [3] .

وفي رواية اخرى ان (سابور) سار في البلاد حتى أتى بلاد البحرين،وفيها يومئذ بنو تميم ، فأمعن في قتلهم ، ففرّ من قدر منهم على الفرار،فأراد اللحاق بهم ، ولكن (عمرو بن تميم بن مرّ) ، وهو سيد تميم يومئذ ، وكان قد بلغ ما بلغ ، تحدث اليه حديثاً لطيفاً أقنعه بالكف عمن بقي ، فتركهم وشأنهم [4] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان السبب الذي دعا بـ (سابور) الى الفتك بالعرب ، هو ان القبائل العربية كانت قد توغلت في جنوب ايران ، وصار لها سلطان كبير هناك ، وتزايد عددها ، ثم صارت تتدخل في الأمور الداخلية للدولة الساسانية . فلما أخذ الأمور بيديه ، بدأ يضرب هذه القبائل ، للقضاء على سلطانها ثم قطع البحر ، فورد (الخط) ، فقتل من بلاد البحرين خلقاً كبيراً ، وأفشى القتل في (هَجَر) ، وكان بها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس . ثم عطف على بلاد عبد القيس فأباد اهلها ، الا من هرب منهم فلحق

---

١ Ency., Vol., 4, P. 315.

٢ Ency., II, P. 565.

٣ Die Araber, III, S. III.

٤ مروج الذهب (٢١٧/١) .

بالرمال ، ثم أتى اليمامة فقتل بها كثيراً أيضاً ، وسار على خطة طمّ المياه وردم الآبار ، ليحرم الناس الانتفاع بها . ثم سار حتى بلغ قرب (المدينة) ، فقتل من وجد هناك من العرب ، وأسر . ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس و (مناظر الروم) بأرض الشأم ، ففعل بهما ما فعله في الأرضين الأخرى ، وأسكن من كان من بني تغلب من البحرين (دارين) واسمها (هيج) و (الخط) ، ومن كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم (هَجَرَ) ، ومن كان من بكر بن وائل (كرمان) وهم الذين يدعون (بكر بن أبان) ، ومن كان من بني حنظلة بـ (الرميلة) من بلاد الأهواز[1] .

فحملة (سابور) على البحرين وساحل الخليج ، انما هي جزء من الحملة العسكرية التي وضعها ذلك الملك للقضاء على نفوذ القبائل العربية التي كانت قد سكنت السواحل الجنوبية من ايران وأقامت بها قبل ايامه بزمن . والظاهر انها انتهزت فرصة ضعف الدولة الساسانية ، وتناحر الرؤساء ورجال الجيش على السلطة فأخذت تزحف نحو الشمال وتقوي سلطانها في الأرضين الجنوبية من المملكة ، فلما انتقل الحكم الى (سابور) وكان من سياسته اعادة السلطة المركزية للدولة والقضاء على الاقطاعيين وعلى منازعي الحكومة ، حمل على عرب ايران ، حملة شديدة عنيفة حتى أخضعهم ، ثم نزل نحو الجنوب فعبرت جيوشه الى جزر البحرين والسواحل العربية المقابلة ، فأوقع بالعرب وآذاهم على نحو ما نجد وصفه في كتب أهل الأخبار .

وقد كان نزوح العرب الى إيران عن طريق البحر ، حيث زحف اهل ساحل الخليج من الخط والبحرين وكاظمة وعمان ، الى السواحل المقابلة : السواحل الجنوبية من ارض الفرس . كما نزحوا اليها من مملكة (ميسان) Mesene ، فتوغلوا شرقاً الى (عيلام) Elam ، اي (خوزستان) ثم الأقسام الجنوبية من فارس . ويفهم مما كتبه (كورتيوس روفوس) Curtius Rufus ، الذي عاش في العشرات الأولى من القرن الثالث للميلاد ، ان العرب كانوا إذ ذاك في (كرمان) وفي (فارس)[2] . ولا بد وان يكون وجودهم في هذه الأماكن قبل هذا العهد

---

١ الطبري (٢/٦٧) ، (٢/٥٧) ، « دار المعارف » .

٢ Curtius Rufus, I, 36-39, Die Araber, II, S. 345, 349.

بأمد طويل . وذلك مما يؤيد ما جاء في تأريخ (الطبري) وغيره من وجود العرب في ايران قبل قيام حكومة الساسانيين .

وقد أنشأ (سابور) اسطولاً قوياً في الخليج العربي ، ليحافظ على حدود امبراطوريته ، وعلى التجارة في هذا الماء ، مع مساهمة أهل الخليج العرب أنفسهم في ركوب البحر وفي نقل التجارة ما بين الهند وسيلان وجزيرة العرب والعراق . ويظهر من روايات أهل الأخبار ان (سابور) نفسه كان في الأسطول الذي وصل الى البحرين للانتقام من العرب الذين كانوا يهاجمون سواحل حكومته الجنوبية المطلة على الخليج[1] .

وفي رواية اخرى نقلها (الطبري) من مورد آخر غير مورد ابن الكلبي : ان سابور ، بعد ان أثخن في العرب وأجلاهم عن النواحي التي صاروا اليها ، مما قرب من نواحي فارس والبحرين واليمامة ، استصلح العرب ، وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوّج والأهواز[2] ؛ وقد كان ذلك بعد حربه مع الروم . والظاهر ان الأوضاع السياسية اضطرته الى استصلاح العرب ، بعد ان تبينت له صعوبة الاستمرار في سياسة العنف والقوة الى أمد غير معلوم ، وبعد ما وجد من خطل في الاستهانة بشأن القبائل ، ولا يستبعد أن يكون للدرس الذي تعلمه من (أذينة) نصيب في هذا التبدل الذي أدخله على سياسته .

ويتبين من وصف (الطبري) لحملات (سابور) على العرب ، انها كانت حملات واسعة ، شملت أرضين بعيدة . بدأت بمن نزل أرض فارس من العرب ممن أناخ على (أبر شهر وسواحل أردشير خرة وأسياف فارس) ، ثم السواحل المقابلة لايران من بلاد العرب ، ثم امتدت نحو الغرب حتى بلغت (المدينة) ، ثم منها نحو بلاد بكر وتغلب ، فيما بين مسالح الساسانيين و (مناظر) الروم . اي انه حارب قبائل بادية السماوة . وهي حملات ان صح انها وقعت فعلاً ، فلا بد وان تكون قد نجحت وتمت بقبائل عربية مؤيدة لـ (سابور) ، اذ يصعب

---

١ العرب والملاحة (ص ٩١) ، Sykes, History of Persia, P. 412.

٢ الطبري (٢/٦٩ وما بعدها) ، (٢/٦١) ، « دار المعارف » .

تصوّر قيام الفرس وحدهم وبدون مساعدة باجتياز البوادي الشاسعة المنهكة لملاحقة العرب ، وهم سادة البادية . ولم يكن في وسع الفرس ، مهما بلـغ جيشهم من التدريب والتنظيم تحمّل العطش وحرارة البادية وجوّها القاسي الصارم .

وفي رواية المؤرخ (أميانوس) Ammianus عن حروب (سابور) (شابور) الثاني تأييد لرواية (الطبري) عن تلك الحروب وتوثيق لأكثرها . وقد وقعت تلك الحروب في ارض اغلب سكانها من عشائر قضاعة[1] .

ولضمان الحدود من غارات الأعراب عليها ، قوّى (سابور) (المسالح)، بأن وضع بها حاميات عسكرية قوية ، لمنع الأعراب من التعرض بالحدود . كما أقام خندقاً عرف بـ (خندق سابور) ليحول بين الأعراب والدنو من الحضر . وقد أباح لرجال الحاميات التي وضعت على الخندق ، اقامة الأبنية وزرع الأرض واستثناهم من دفع الخراج[2] .

وقام (سابور) بعمليات واسعة لاجلاء القبائل من منـازلها الى منازل اخرى جديدة ، تأديباً لها ، وضماناً لعدم قيامها بغارات على الحدود . وهي سياسة قديمة معروفة ، استعملتها الحكومات في تأديب القبائل . فكان الآشوريون يجلون القبائل من مواطنها الى مواطن جديدة ، قد تكون بعيدة عن منازل القبيلة القديمة . وقد أجلى (سابور) بعض عشائر (تغلب) الى البحرين ، حيث انزلوا (دارين) وهي (هَيج) ، وأسكن عشائر اخرى (الخط) . ونقل بعض عشائر (بكر وائل) الى (كرمان) و (ابان) ، حيث عرفوا بـ (بكر أبان) . ونقـل (بني حنظلة) الى (الرملية) من (الأهواز) (خوزستان) . ويرى (نولدكه) احتمال كون (الرملية) موضع (قرية الرمل) ، الواقع على مسيرة يوم واحد عن (شوشتر) . ونقل قوماً من (عبد القيس) وتميم الى (هجر)[3] .

وفي جملة ما وضعه (سابور) من خطط لحفظ (السواد) وحفظ الحدود، اقامة (أنابير) اي مخازن في المواضع المهمة ، لخزن الأسلحة والأطعمة لتوزيعها

---

١ Ammianus, 16, 9, 3-4, Die Araber, III, S, 110, Aùltheim-Stiehl, Finanzgeschichte der Spätantike, (1957), S. 35, 38.

٢ Die Araber, II, S. 349.

٣ Die Araber, II, S. 351.

على حاميات (المسالح) وعلى الأعراب عند الحاجة . ومن هذه المواضع : (الأنبار) و (عكبرا) . وقد وضعت كلها تحت حماية عسكرية قوية . كذلك عهد الى (آل نصر) مهمة حماية الحدود ، بضبط العشائر والسيطرة عليها . بأن جعلهم يقومون بدور الشرطة المسؤولة عن حماية الحدود[1] .

ولا استبعد احتمال تقليد (سابور) للرومان في خططهم العسكرية التي كانوا وضعوها لحماية حدودهم في بلاد الشام وفي افريقية من غزو القبائل . فقد كانوا قد حموا حدودهم بسلسلة من التحصينات ضمت Castella و Burgi و Centenaria ، وخطوطاً دفاعية حصينة أقيمت في مؤخرة التحصينات الأمامية عرفت بـ Fossatum . و (المسالح) التي أقامها الفرس أمام (الخندق) أو امام الخطوط الدفاعية المحصنة هي محاكاة لخطط الرومان ، وتقابل ما يقال له Limitanei في اللاتينية[2] .

ولما تحرش (سابور) سنة (٣٣٧ م) بحدود الروم كلف العرب الهجوم على حدودهم أيضاً وغزوها[3]. والظاهر ان هؤلاء العرب كانوا من العرب المحالفين له،ولعلهم عرب الحيرة . وقد وقع هذا الغزو في ايام (قسطنطين) Constantine ملك الروم .

ونجد في الروايات الأعجمية تأييداً للرواية العربية القائلة باسترضاء (سابور) للعرب للاستفادة منهم في محاربة الروم وفي الوقوف أمامهم . اذ ورد في الأخبار اليهودية انه اثناء الحروب الفارسية الرومية الطويلة التي امتدت من سنة (٣٣٨) حتى سنة (٣٦٣) للميلاد . استدعى (سابور) قبائل عربية عديدة وأسكنها في مواضع متعددة من العراق ، وذلك لتساعده في حربه مع الروم[4] .

وفي رواية في تأريخ الطبري : ان (ليانوس) ملك الروم ، حارب (سابور)، فضم الى جيشه من كان في مملكته من العرب ، أي عرب الروم ، « وانتهزت

---

١ Die Araber, II, S. 352.

٢ Die Araber, II, S. 350.

٣ Sykes, History of Persia, I, P. 413.

٤ The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 735, V. Funk, Die Juden in Babylonian, II, 41.

العرب بذلك السبب الفرصة من الانتقام من (سابور) وما كان من قتله العرب ، واجتمع في عسكر (لليانوس) من العرب مئة ألف وسبعون ألف مقاتل ، فوجههم مع رجل من بطارقة الروم بعثه على مقدمته ، يسمى (يوسانوس) . أما من بقي في عسكر (لليانوس) من العرب،فقد سألوه ان يأذن لهم في محاربة (سابور) ، فأجابهم الى ما سألوه ، فزحفوا الى (سابور) فقاتلوه ، ففضّوا جمعه، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب (سابور) فيمن بقي من جنده ، واحتوى (لليانوس) على مدينة (طيسفون) محلة سابور ، وظفر ببيوت أموال سابور وخزائنه فيها »[1] عندئذ استنجد سابور بقواده فلما وصل اليه العون ، استخلص طيسغون،ثم تصالح بعد مقتل (لليانوس) مع (يوسانوس) الذي انتخبه الجيش ملكاً على أثر قتل (لليانوس) .[2]

وقصد (الطبري) بـ (لليانوس) الامبراطور (جوليان) (بوليان) Julian ، فقد تقدم هذا بجيوشه سنة (٣٦٣ م) ، نحو الدولة الساسانية فاكتسح حدودها، وهرب الفرس من أمامه ، حتى بلغت جيوشه (طيسغون) عاصمة الساسانيين ، إلا أنه لم يلحق ضربة شديدة قاصمة بـ (سابور) ، بل ترك عاصمته ، وتراجع حيث لاقى مصيره في المعركة في أثناء رجوعه الى بلاده . فانتخب (يوسانوس)، وهو (جوفيان) Jovian في لغة الروم ، خلفاً له[3] .

وقد ورد في بعض الروايات أن (لليانوس) (يوليان) Julian قيصر الروم ، كان متعجرفاً متغطرساً فلما كلف جماعة من العرب Saracen أن ينضموا الى جيشه ، لمحاربة الفرس ، وافقوا على ذلك وحاربوا معه ، إلاّ أنهم لما طالبوه بعطاياهم وبهدايا ، أجابهم جواباً غليظاً : « الامبراطور الشجاع المقدام ، عنده الحديد ، لا الذهب»، فتركوه وانقلبوا عليه ، وألحقوا به خسائر كبيرة[4] .

ويذكر المؤرخ (أميانوس مرسيللينوس) Ammianus Marcellinus : ان (يوليان) Julian لما بلغ (الفرات) ليلحق بالأسطول الذي بناه في هذا النهر

---

١ الطبري (٢/٦٨) ، اليعقوبي (١/١٣١) .
٢ الطبري (٢/٦٨ وما بعدها) .
٣ Sykes, History of Persia, I, P. 422.
٤ Sykes, History of Persia, I, P. 418.

ويسير به لمحاربة الساسانيين ولينقل جيشه الى حيث يلتقي بالجيش الآخر الزاحف من (دجلة) والطرق البرية ، قدمت له قبائل عربية Saracens الطاعة ، الا ان هؤلاء أناس لم يكونوا يعرفون هل هم أعداء أو أصدقاء ؟[1] ولذلك صار الروم على حذر شديد منهم ، خشية الانقلاب عليهم عند الشدائد .

وذكر هذا المؤرخ : ان سادات القبائل قدّموا الى القيصر تاجاً من ذهب ، ليعبّر عن خضوعهم له . ولقبوه بلقب (ملك كل العرب) فقبل الملك منهم التاج واللقب ، لما في ذلك من أثر معنوي يحدثه في نفوس العرب . وحاربت القبائل التي انضمت اليه الفرس في معارك صغيرة[2] . فكافأها القيصر على عملها هذا . الا انه لم يقدم لها معونات الذهب التي كانت تقدم عادة الى سادات القبائل. فاستاء الرؤساء من ذلك ، وانحاز قسم منهم الى الفرس . وأخذوا يتحرشون بعسكر (يوليانوس) ، وألحقوا به خسائر في الأرواح،وباعوا من وقع في أيديهم أسيراً من الروم ، في أسواق النخاسة[3] .

وكان سبب انضمام تلك القبائل الى الروم ، ما لاقته من شدة (سابور) (شابور الثاني) ومن تنكيله بها ، فأرادت بانضمامها الى (يوليانوس) الانتقام من الفرس ، وأخذ ثأرها منهم عند سنوح أول فرصة . وقد آذوه فعلاً ، مما حمله على تغيير سياسته تجاههم ؛ فأخذ يسترضيهم فعاد اليه من عاد منهم[4].

وذكر (أميانوس) ، ان ممن انضم الى الفرس من الأعراب Saraceos ، سيد قبيلة اسمه (مالك) Malechus . وقد عرف والده بـ Podosacis[5] . وقد تمكن بمعاونة رجل عربي آخر اسمه : (سورينا) Surena من الفتك بكتيبة من كتائب الروم . وذلك بنصب شرك لها ، فوقعت تحت سيوف العرب . وذكر ان (مالك) ، كان عاملاً (فيلارخا) على قبيلة اسمها Assanitarum ، يرى البعض انهم الغساسنة[6] .

---

١ Sykes, I, P. 419.
٢ Ammianus, 23, 5, I, 24, I, 10, Die Araber, II, S. 324.
٣ Ammianus, 25, 8, I, Die Araber, II, S. 325.
٤ Die Araber, II, S. 325.
٥ Ammianus, 24, 2, 4, Die Araber, II, S. 325.
٦ Die Araber, II, S. 325.

ويذكر أهل الأخبار ان (سابور) إنما لقب بـ (ذي الأكتاف) ، لأنه خلع أكتاف العرب[1] . ويرى (نولدكه) أن هذا التفسير مصنوع ، وان اللقب انما جاء عند الساسانيين في معنى آخر لا علاقة له بخلع الأكتاف ، بل قصد به (ذو الأكتاف) ، اي صاحب الأكتاف دلالة على الشدة والقوة ، فهو لقب تمجيد وتقدير . وقد حوّله أهل الأخبار الى معنى آخر ، هو المعنى المتقدم لبطش (سابور) بالعرب وايقاعه القاسي بهم . أما (أرثر كريتنسن) ، فيرى أن تفسير اهل الأخبار تفسير صحيح ، وهو لا يستبعد خلع (سابور) لأكتاف العرب ، فقد كان مثل هذا التعذيب القاسي المؤلم معروفاً في تلك الأيام[2] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ،أن التسمية المذكورة إنما جاءته من الجملة الفارسية، وهي (شابور هويه سنبا) (وهويه اسم للكتف وسنبا أي نقّاب . قيل له ذلك لأنه لما غزا العرب كان ينقب أكتافهم ، فيجمع بين كتفي الرجل منهم بحلقة ويسبيه ، فسمته الفرس بهذا الاسم وسمته العرب ذا الأكتاف)[3] فالتسمية إذن هي تسمية فارسية . ولا استبعد أن تكون القصة شرحاً تكلفه القصاصون ، لتفسير هذا اللقب ، وهناك ألقاب عديدة ، فسرت تفسيراً اسطورياً على هذا النحو من المبالغة والتهويل .

وقد نسب الى (سابور) (شابور) هذا بناء الأنبار ، ذكر أنه بناها ، فسميت بـ (فيروز شابور) . وقد صيرها العرب (الأنبار)[4] . وكانت من المدن التي تغلب عليها العنصر العربي عند ظهور الإسلام ؛ كما نسبوا اليه بناء (عكبرا)[5] .

ويذكر (المسعودي) أن (سابور بن سابور) . ويريد به (سابور الثالث) (٣٨٣ – ٣٨٨ م)[6] ، كانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها من العرب . ويتبين من بيت شعر نسبه الى شاعر نعته بأنه : (شاعر اياد) ولم

---

١ الطبري (٦٧/٢) ، مروج الذهب (٢١٦/١) .
٢ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢٢٥) .
٣ حمزة (ص ٣٦) .
٤ « والأنبار : أهراء الطعام ، واحدها نبر ، ويجمع أنابير » ، اللسان ، مادة (نبر)، (١٩٠/٥) (صادر) ، حمزة (٣٤) .
٥ حمزة (٣٧) .
٦ أو سنة (٣٨٧ م) في بعض الروايات ،

يسمه. أن إياداً استعادت مكانتهـــا ، وأصبحت قبابها و (حولها الخيل والنعم) وذلك (على رغم سابور بن سابور)[1] . ويظهر أن إياداً التي كانت قـد لحقت بأرض الروم في أيام (سابور ذي الاكتاف) عادت فرجعت الى العراق وحلت في محلها .

ويذكر (المسعودي) روايةً أخرى ، خلاصتها أن إياداً بعد ان رجعت من أرض الروم ، دخلت في جملة (ربيعة) من ولد (بكر بن وائـــل) ، وأن ربيعة كانت قد غلبت على السواد ، وشنت الغارات في ملك هذا الملك ، فصارت إياد في جملة (ربيعـــة)[2] . فإياد وإن عادت الى العراق ، لم تتمكن من أن تستعيد مكانتها ، فدخلت في قبائل (ربيعة) التي هي من (بكر وائـــل) ، وهي قبائل كانت قد كسبت سلطاناً ومكانةً مستغلة فرصة ضعف هـــذا الملك ، فسادت من ثم على (إياد) .

وقد وقع هذا التطور بعد وفاة (سابور ذي الأكتاف) ، وإذا أخذنا برواية (المسعودي) هذه ، وجب أن يكون زمانه ما بين سنة (٣٨٣ – ٣٨٨ م) . ففي خلال هذه المدة كان حكم (سابور الثالث)[3] .

ولا تتحدث الموارد العربية بشيء يذكر بعد ذلك عن علاقة الساسانيين بالعرب الى أيام (بهرام جور) (بهرام كور) (٤٢٠– ٤٣٨ م) ، وهـو المعروف بـ (بهرام الخامس) عند المؤرخين[4] . ثم نجدها تعود فتتكلم عن علاقتهم بعرب الحيرة ، حيث يحتل الكلام عليهم الجزء الأكبر من صفحات تأريخ العلاقات العربية الساسانية ، ولهذا السبب وجب البحث في الحيرة وفي علاقاتها بالساسانيين في فصل خاص .

وكان لملك الحيرة فضل في تولي (بهرام) عرش الدولة الساسانية بعد أن قرر الأشراف وأصحاب الجاه والسلطان من رجـــال الدين والجيش انتزاعه من أولاد

---

١ على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم مروج الذهب ((١/٢٢١) .

٢ مروج (١/٢٢١) .

٣ Ency., Vol., 4, P. 178.

٤ Ency., Vol., 4, P. 178, R. Ghrishman, Iran, P. 299.

(يزدجرد) والده . فقد أمده بجيش افزع اولئك الأقوياء فوافقوا على أن يمنحه التاج ، كما سأتحدث عن ذلك في أثناء كلامي على ملوك الحيرة .

ويذكر (الطبري) ان (بهرام) المذكور كان قد ربي تربية عربية ، ذلك لأن أباه (يزدجرد) (يزدكرد) كان قد أرسله الى الحيرة لتربيته تربية صحيحة ، فأقام في البادية وبين الأعراب حتى شب مثلهم قوياً شجاعاً مغامراً ، ينظم الشعر بالعربية ، ويتكلم بها بطلاقة وفصاحة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين ان اقامة (بهرام) انما كانت في قصر الخورنق ، ويرون ان بناء هذا القصر كان قد تم قبل ذلك بزمن . ويرون ان ارساله الى الحيرة،لم يكن على نحو ما زعمته الروايات العربية ، وانما كان نفياً له في الواقع لخلاف بينه وبين أبيه ، ولأن أباه لم يكن يعطف عليه عطفه على ولديه الآخرين[1] .

وهذا القسم من تأريخ صلات الساسانيين بعرب الحيرة.واضح ومفصل بالقياس الى القسم المتقدم ، وانه يدل على انه أخذ من موارد تأريخية منظمة، غير ساسانية وهي موارد دوّنها أهل الحيرة أنفسهم ، وفي مقدمتهم رجال الكنيسة الذين ألفوا تدوين التواريخ ، وقد صار رجال الدين النصارى هم رواة التأريخ وحفظته منذ تفشي النصرانية ، فمن هذه الموارد نقل (ابن الكلبي) واضرابه ممن دوّنوا تأريخ الحيرة .

وذكر بعض أهل الأخبار ان (كسرى برويز) (كسرى أبرويز) ، لما انهزم من (بهرام شوبين) ، كان فراره على فرس من خيل رجل من طيء ، فنجا بفضله ، وذكروا ان ذلك الفرس هو (الضبيب) . وهو من خيل العرب المعروفة[2] .

وذكر (حمزة الأصفهاني) ان من جملة قواد (كسرى أبرويز) القائد (فنابرزين) ، وهو (نكهان) . وكان (فنابرزين) متولياً على ما يلي الريف من البادية الى حد الحيرة الى حدود البحرين ، والعرب تسميه (خنابزين ساسان بن روزبة)[3] .

---

١ ايران في عهد الساسانيين (ص ٢٦٠) .
٢ الاشتقاق (ص ١١٧) .
٣ حمزة (ص ٩١) .

وفي ايام (كسرى أنو شروان) ، طرد الأحباش من اليمن ، اذ أرسل اليها نجدة بقيادة (وهرز) ، وبذلك دخل الفرس اليمن ، وصاروا على مقربة من الحبش حلفاء الروم . وقد لاقت السياسة البيزنطية بذلك ضربة شديدة عنيفة ، لأن الفرس بدخولهم اليمن صار في امكانهم الضغط على التجارة البحرية للروم ، وصار في امكانهم الهيمنة على منفذ البحر الأحمر ، البحر الذي تلج منه سفن الروم الى المحيط الهندي وبالعكس،كما صار في امكان الفرس الأتصال بعرب الحجاز وعقد اتفاقيات تجارية مع أهل مكة ، وهم اذ ذاك من أهم تجار بلاد العرب .

وقد بقي الفرس في اليمن حتى ظهور الاسلام ، فأسلم آخر عامل فارسي ، وزال ملك الفرس عنها بذلك ، كما زالت الدولة التي كان العامل الفارسي يحكم باسمها .

وكانت للفرس قوة في عمان عند ظهور الاسلام ، وقد ذكر ان أول من أغار عليهم (نعام بن الحارث) من (عتيك) ، وكان من فرسانهم في آخر الجاهلية وأول الاسلام[1] .

وذكر (الطبري) : ان (كسرى أنو شروان) (انصرف نحو عدن ، فسكر ناحية من البحر هناك بين جبلين مما يلي أرض الحبشة بالسفن العظام والصخور وعمد الحديد والسلاسل . وقتل عظماء البلاد ... ثم انصرف الى المدائن ، وقد استقام له ما دون هرقلة من بلاد الروم وأرمينية،وما بينه وبين البحرين من ناحية عدن)[2]. وفرّق (كسرى) الولاية والمرتبة بين أربعة اصبهذين . منهم : اصبهذ نيمروز وهي بلاد اليمن[3] .

وذكر (حمزة) أنه في زمن (كسرى أنو شروان) ولى (أنوش بن حشنشبنده) ناحية من ارض العرب ، وبقي عليها بعض ايام هرمز بن كسرى[4] .

وكان الساسانيون كالبيزنطيين قد اتخذوا (مسالح) لهم على مشارف البوادي والحدود لحماية أملاكهم من الغزو ، ولإخبار الحكومة عند دنو العدو وحالة حدوث خطر . وهي أبنية حصينة ، وضعوا فيها قوات تحت امرة أمراء منهم ، يقيمون

---

١ الاشتقاق (٢/٢٨٤) .
٢ الطبري (٢/١٠٣) ، « دار المعارف » .
٣ الطبري (٢/٩٩) ، « دار المعارف » .
٤ حمزة (ص ٩١) .

فيها ، واتخذوا فيها مخازن لخزن الأسلحة والأطعمة . وحفروا فيها آباراً ، وصنعوا (كهاريز) تخزن الماء . ولما ظهرت جيوش الإسلام افتتح العراق ، كان على هذه المسالح إخبار (طيسفون) بما حدث ، والوقوف أمام تلك الجيوش ، حتى تجيء جيوشهم فتلتحم بالمسلمين .

وفي جزر البحرين قنوات يظن أنها من عمل الساسانين ، أقاموها للاستفادة من المياه المتدفقة من العيون ، وهي أخاديد حفرت في الأرض ثم بطنت بمادة تمنع الماء من التسرب الى التربة ثم سقفت بصفائح من الحجر ، أهيل عليها التراب لتمنع أشعة الشمس من الوصول الى الماء فتبخره ، وبذلك تقل كمياته . وبين مسافة وأخرى تقدر ما بين عشرة وعشرين ياردة توجد منافذ لمرور الهواء منها الى باطن القناة . وقد بطنت هذه المنافذ بالحجارة،وقد أقيمت جدر عند مخارجها الى الأرض لتحميها من سقوط الأتربة فيها . ولا تزال بعضها عامرة تجري فيها مياه العيون حتى الآن . وهناك آثار قنوات مشابهة لها تقع في السواحل المقابلة للبحرين من المملكة العربية السعودية تعود الى هذا العهد أيضاً[1] .

وقد كانت البحرين تخضع لحكم الساسانين عند ظهور الإسلام ، أما حاكمها الفعلي فهو رجل من العرب على دين النصرانية ، وعلى مذهب النساطرة . وكان للنساطرة عدة أساقفة في مواضع من الخليج ، كما كانت لليهودية وللمجوسية مواضع في بلدان الخليج أيضاً . أما غالبية العرب ، فعلى الوثنية[2] .

وقد كانت (الأبُلّة) من أهم المواضع المهمة في نظر الساسانين من الوجهة الحربية . وكانت تعدّ عندهم (فرج أهل السند والهند)[3] . وكان (فرج الهند) أعظم فروج فارس شأناً ، وصاحبه يحارب العرب في البر ، والهند في البحر[4] . وقد وضعوا هذا الفرج تحت امرة قواد عسكريين . ولما سمعوا بمجيء خالد بن الوليد من اليمامة ، أسرع كسرى فأمر قواده بالاتجاه الى (الكواظم) والى (الحفير) لمقابلته . وقد التقى به (هرمز) بكاظمة.وكان جباراً ، كل العرب عليه مغيظ . وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخبث ، حتى قالوا : (أخبث من

---

١ James H. D. Delgrave, P. 68.

٢ Belgrave, P. 61.

٣ الطبري (٣/٣٤٧) .

٤ الطبري (٣/٣٤٨) .

هرمز) و (أكفر من هرمز) . فلما التحم العرب والعجم ومن معهم من العرب قتل هرمز وفرّ العجم وأفلت (قباذ) و (أنو شجان) ، وكان على مجنبة الفرس . وقد عرفت هذه الوقعة بـ (ذات السلاسل) ،لاقتران العجم في السلاسل حتى لا يكون لهم أمل في الفرار[1] .

وفي الحروب الأخرى التي وقعت بين الفرس والمسلمين ، توالت الهزائم على العجم على الرغم من كثرة عددهم . ولم يكن الفرس يحاربون وحدهم،بل حارب معهم (عرب الضاحية) ، وآخرون[2] . ففي (وقعة الوجلة) ، مما يلي(كسكر) من البر ، كان يحارب الى جانب الفرس قوم من العرب من عرب الضاحية ، وقد أسر فيها ابن لجابر بن بجير وابن لعبد الأسود ، وهلك عدد كبير من (بكر بن وائل) وكانوا نصارى ، فغضبت لذلك بقية نصارى بكر بن وائل وغضب نصارى عرب آخرون ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا الى موضع (أليس) ، وعليهم (عبد الأسود العِجْلي) في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من اهل الحيرة ، وكان جابر بن بجير نصرانياً ، فساند عبد الأسود ، فقابلهم (خالد) وجالد العرب أولاً ، فسقط (مالك بن قيس) ، وهو رأس من رؤوسهم، ثم تهاوت صفوف الفرس أمام سيوف خالد ، ولم تثبت أمامه[3] .

ولما قصد خالد للحيرة ، وجد قائد الفرس ، وهو (الأزاذبه) قد ولّى هارباً ، وكان عسكره بين الغَرِيّيْن والقصر الأبيض ، فدخل خالد (الخورنق) وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم ، فحاصروا (القصر الأبيض) وفيه (إياس بن قبيصة الطائي) ، وحاصروا (قصر العدسيين) وفيه (عديّ بن عدي) المقتول ، وحاصروا (قصر مازن) وفيه (ابن أكال) ، وحاصروا (قصر ابن بقيلة) ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وكل هؤلاء عرب نصارى . ولكنهم لم يثبتوا أمام المسلمين ، وتهاوت قصورهم ، وطلبوا الصلح .

وكان اول من طلب الصلح (عمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث) وهو بقيلة ، وتتابعوا على ذلك ، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم

---

١ الطبري (٣/٣٤٨) وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٥٣ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٥٥ وما بعدها) .

دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدي وقال: ويحكم ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ او عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ، فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ،فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ، فقال : صدقت . ثم صالحوه على الجزية[1] .

وصالح (صلوبا بن نسطونا) (صاحب قس الناطف) خالد بن الوليد على (بانقيا) و (بسما) بدفع الجزية له . وقد نقبه خالد على قومه . ولما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا أتته دهاقين (الملطاطين)[2] ، وأتاه (زاذ بن بهيش) دهقان فرات سريا ، و (صلوبا بن بصبهري) ؛ فصالحوه على ما بين الفلالج الى (هرمز جرد) ، ودخل أهل (البهقباذ) الأسفل وأهل (البقباذ) الأوسط والأماكن التابعة للمذكورين في الصلح[3] ونزل خالد الحيرة ، واستقام له ما بين الفلاليج الى اسفل السواد ، وأقر المسالح على ثغورهم ، ورتب القواد وموظفي الخراج وسائر الأعمال استعداداً لطرد الفرس[4] .

وكان أهل الأنبار عرباً ، يكتبون بالعربية ويتعلمونها، وكان عليهم حينما بلغها (خالد) (شيرزاذ) صاحب (ساباط) . ولما وجد الفرس ان من غير الممكن لهم الوقوف أمام المسلمين ، تركوا المدينة لخالد ، وخرج (شيرزاذ) في جريدة خيل ليلحق بأصحابه ، ثم صالح أهل (كُلواذى)[5] . ثم قصد خالد (عين التمر) وبها يومئذ (مهران بن بهرام جوبين) في جمع عظيم من العجم ، و (عقة بن أبي عقة) في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافّهم ، فهجم خالد على عقة ومن معه من العرب . فأسره وانهزم عسكره ،

---

١ الطبري (٣/٣٥٩ وما بعدها) .

٢ (ومنه حديث علي ، كرم الله وجهه : فأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري ، يريد به شاطىء الفرات) ، اللسان (٧/٤٠٨) «صادر» ، مادة (ملط) ، الطبري (٣/٣٦٧) ، البلدان (١/٣٣١) ، (بيروت ١٩٥٥ م) ، البكري ، معجم (١/٢٢٢) ، (طبعة السقا) ، اليعقوبي (١/١٣١) ، مراصد الاطلاع (١/١٢٣) .

٣ الطبري (٣/٣٦٨) .

٤ الطبري (٣/٣٧٢ وما بعدها) .

٥ الطبري (٣/٣٧٤ وما بعدها) .

ثم سقط الحصن ، وانهزم الفرس . وأمر خالد بعقة وكان خفير القوم ، فضربت عنقه ثم دعا بعمرو بن الصعق ، فضرب عنقه ، وانتهى أمر عين التمر[1] .

وحاول الفرس جمع صفوفهم ثانية،للوقوف أمام خالد واسترداد ما أخذ منهم . وكان خالد اقام بدومة الجندل ، فظن الأعاجم به ، وكاتبهم عرب الجزيرة غضباً لعقة ، فخرج (زرمهر) من بغداد ومعه (روزبة) ، يريدان الأنبار، واتعدا حصيداً والخنافس ، وانتظرا من كاتبهما من ربيعة ، غير أن المسلمين هاجموا الساسانيين بحصيد ، فقتل (زرمهر) وقتل (روزبة) وفر من كان معهما ، الى (الخنافس) فلما أحس (المهبوذان) بقدوم المسلمين الى المكان ، هرب ومن معه الى (المُصيخ) وبه الهذيل بن عمران ، وخرج (خالد) من (العين) قاصداً للمصيخ ، فأغار على الهذيل ومن معه ومن أوى اليه ، فقتلوهم ، وأفلت الهذيل في اناس قليل[2] .

وأخذ (ربيعة بن بجير التغلبي) يجمع الجموع لمحاربة المسلمين غضباً لعقة ، وواعد الفرس والهذيل ، فباغت خالد جموع (ربيعة) بالثني ، فانتصر عليها وأسر ابنةً له،ثم باغت موضع (الزميل) وكان (الهذيل) قد أوى اليه ، ثم باغت موضع (البشر) ، وكانت تغلب به ، فقتل منهم عدداً كبيراً ، ثم تحرك من البشر الى (الرُّضاب) ، وبها (هلال بن عقة) ، فارفض عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد منه وانقشع عنها هلال[3] .

ثم قصد خالد (الفراض) ، والفراض تخوم الشأم والعراق والجزيرة، فاغتاظت الروم وحميت ، واستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، وقد حموا واغتاظوا واستمدوا تغلب وإياداً والنمر ، فأمدوهم ، ثم عبروا الفرات الى الجانب الآخر حيث كان جيش خالد فهزموا ، وانتصر المسلمون[4] .

وكانت صفوف الساسانيين متضعضعة ، والخصومات بينهم شديدة فتهاوى ملكهم ، وسقطت (طيسفون) عاصمتهم ، ثم تهاوت مدنهم في ايران ، وزالت الحكومة من الوجود على نحو ما سنراه فيما بعد .

---

١ الطبري (٣/٣٧٦ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٣٧٩ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٣٨٢ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٣٨٣) .

وأما صلات (البيزنطيين) بالعرب ، فلا نعلم عن بدايتها الا شيئاً قليلاً ، لأن الموارد التأريخية لم تهتم بغير الأحداث الكبرى ، التي كان لها شأن في تأريخ الروم .فلم تشر الى العرب الا في أثناء اشتراكهم اشتراكاً جماعياً في جيش البيزنطيين في قتال الساسانيين أو في جيش الفرس إبان قتال البيزنطيين ، وأما القبائل العربية وغاراتها على حدود بلاد الشأم ، فلم تتعرض لها لأنها لم يكن لها شأن ، فهي حوادث اعتيادية محلية ، ثم انها اذا تطرقت الى المهم منها تطرقت اليه بايجاز ، ولهذا حرمنا الوقوف على صلات العرب بالبيزنطيين بصورة مفصلة وعلى أخبار الإمارات العربية التي حكمت في البادية الملاصقة لبلاد الشأم وفي بلاد الشأم ما بين ظهور دولة البيزنطيين وبزوغ نجم آل غسان .

لقد كابد الساسانيون والبيزنطيون من القبائل العربية عنتاً شديداً مثل ما كابده المتقدمون عليهم منهم . فقد كانت تراقب الفرص لتهاجم الحدود أو الجيوش النظامية في أثناء انتقالها الى ساحات القتال أو اشتغالها في القتال ، أو في أثناء تراجعها أو هزيمتها ، فتوقع بها وتكبدها خسائر ، وتربك وضعها ، ثم انها كانت تنتقل من موضع الى موضع ، من الأرضين الخاضعة لسلطان البيزنطيين الى الأرضين التابعة للساسانيين وبالعكس ، وقد تثور وتهاجم القرى في دولة ، فاذا عقبتها ، هاجرت الى الدولة الأخرى المعادية لها ، ولهذا السبب وجد الساسانيون والبيزنطيون ان من مصلحتهما عقد اتفاقية تحرم انتقال الأعراب من أرض احدى الحكومتين الى أرض الحكومة الأخرى من غير ترخيص وتخويل ، وذلك في أيام السلم بالطبع[1] .

لقد أخذت الدولة البيزنطية الأرضين التي كانت خاضعة لروما ، وصارت تديرها من (القسطنطينية) ، وتعيّن حكامها وترسل الجيوش اليها ، وتطبق عليها القوانين التي تصدرها (القسطنطينية) . بقي الحال على هذا المنوال الى ان طرد البيزنطيون عن بلاد الشأم بظهور الاسلام ، وارساله الجيوش الى تلك البلاد لنشر دين الله فيها . فذهب الحكم البيزنطي عنها ، وبقي الأثر الثقافي أمداً يهيمن على البلاد المفتوحة .

وقد كانت بصرى من أهم المدن التي يرد اليها عرب الحجاز للاتجار. وكانت

---

١ Musil, Hegaz, P. 306.

آخر مكان يصل اليه تجار أهل مكة في الغالب في الشمال . يقيمون فيه ، يبيعون ويشترون ويدفعون للروم العشور ، وهي الضرائب المتعارف عليهـا اذ ذاك ، ثم يعودون الى ديارهم ، ومعهم مـا اشتروه من تجارات بـلاد الشأم ، من طرف مصنوع في هذه البلاد ، أو مستورد اليها من بلاد الروم ومن أوروبـة ، ومن سلع حية هي الرقيق الذي يباع في سوق بصرى ، وقد استورد اليها من مختلف الأنحاء .

وتعرف بصرى بـ Bostra عند الرومان واليونان[1] ولأهميتها الحربية والسياسية والتجارية كان يقيم بها حاكم روماني ، ثم حكمها حكّام من اليونان بعد انتقالها الى حكم اليونان ، كما وضعوا بها حاميات بيزنطية . وذلك لقربهـا من الأعراب وللدفاع عن الحدود المهددة بهجوم ابناء البادية عليها . وقد أصيبت بخسائر جسيمة ونزل بها خراب شديد على أثر مهاجمة الفرس لبلاد الشأم واستيلائهم عليهـا ، فتهدم قسم كبير من أبنيتها ، كـما تهدم قسم من أبنية (اذرعات) وذلك في سنة (٦١٣ م)[2] .

و (بصرى) هي الآن قرية مهملة من قرى حوران ، ولا تزال بها بقيـة قائمة من آثار . وقد ورد ذكرها في سيرة الرسول ، حيث كان قد نزل بها مع عمه (أبو طالب) حينما قدمها عمه للإتجار . وذكر ان (بحيرا) الراهب، الذي يرد اسمـه في كتب السير ، كان من رهبان بصرى ، وقـد كان يقيم في دير هنـاك .

وكانت (غزة) من المواضع الأخرى المهمة عند أهل مكة ويثرب ، لأنهـا كانت المورد الأخير لتجار هاتين المدينتين على البحر الأبيض . وكانت من المواضع التابعة للروم . ترد اليها السفن الواردة من بلاد الروم وموانىء ايطاليـة ومصر ولبنان . فتفرغ ما لديها من تجارة ويشتري أصحابها ما يجدون في غزة من أموال، ولهذا صارت فرضة مهمة لتجار أهل الحجاز .

ومن سادات القبائل الـذين انتقلوا من أرض كانت خاضعة للساسانيين الى أرض كانت تابعة للبيزنطيين سيد قبيلـة ذكره (ملخوس الفيلادلفي) Malchus

---

١ Hastings, P. 102.

٢ دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ، (٦٧٢/٣) .

Philadelphus في تأريخه ، وسماه (امرأ القيس) Amorkesos = Amerkesos وقال : إنه كان يقيم في الأصل في الأرضين الخاضعة لسلطان الفرس ، ثم ارتحل عنها ونزل في ارضين قريبة من حدود الفرس ، واخذ يغزو منها حدود الساسانيين والعرب Saracens المقيمين في الأرضين الخاضعة للروم . وتوغل في (المقاطعة العربية) حتى بلغ البحر الأحمر ، واستولى عـلى جزيرة (ايوتابا) Iotaba Jotaba ، وهي جزيرة مهمـة كان الروم قد اتخذوها مركزاً لجمع الضرائب من المراكب الآتية من المناطق الحارة أو الذاهبة اليها ؛ فتصيب الحكومة أرباحاً عظيمةً جداً . فلما استولى على تلك الجزيرة ، طرد الجباة الروم ، وصار يجبيها لنفسه ، فاغتنى . كذلك حصل على ثروة عظيمة من غنائم غزوه للمواضع المجاورة لهذه الجزيرة والواقعة في العربية الحجرية واعالي الحجاز والأرضين الخاضعة لسلطان الساسانيين .

وأراد (امرؤ القيس) ؛ بعد أن بلغ من السلطان مبلغه ، الاتصال بالروم، والتحالف معهم ، والاعتراف به عاملاً رسمياً أي Phylarch أو Satrap على العرب الذين خضعوا له وعلى العرب المعترفين بسلطان الروم عليهم في (المقاطعة العربية) ، فأوفد رجلاً من رجال الدين اسمه (بطرس) الى (القسطنطينية) يعرض رغبته هذه على القيصر (ليو) . فلما قابل هذا رجال البلاط ، أظهر لهم انه يريد الدخول في النصرانية . فأظهر القيصر (ليو) رغبته في مقابلة (امرىء القيس) للتحادث معه . فقصده (امرؤ القيس) ؛ فاستقبله استقبالاً حسناً ، وعامله معاملة طيبة ، وأجلسه على مائدته ؛ ومنحه لقب Patrician ، وجالس رجال مجلس (السنات) Senate . فأدى ذلك الى استياء الروم من سياسة القيصر هذه مع رجل مشرك . ولكنه بيّن لهم انه يريد تنصيره بذلك، واخضاعه لسلطانه. ولما قرر العودة أعطاه القيصر صورة ثمينـة وهدايا نفيسة ؛ وحث رجال مجلس الدولة ان يمنحوه هدايا سخية . ثم منحه درجة (عامل) Phylarch على الجزيرة وعلى جميع ما استولى عليه وعلى أرضين أخرى جديدة لم يكن قـد أخذها من قبل ، الا ان الروم لم يرتاحوا من هذه المعاملة ، وانزعجوا من اسراف القيصر

في اكرامه ومنحه تلك الأرضين ، ولا سيما تلك الجزيرة التي استرجعوها بعد ذلك بمدة ليست طويلة وفي مدة حكم القيصر (أنستاس) (انسطاس) (انسطاسيوس) Anastasius [1] .

ولما كان القيصر (ليو) Leo (لاون) (اليون) ، قد حكم من سنة (٤٥٧ م) حتى سنة (٤٧٤ م)[2] ، فيكون اعتراف (ليو) بحكم (امرىء القيس) ، ومنحه لقب (فيلارخ) (فيلارك) قد وقع في اثناء هذه المدة .

ويظهر من تأريخ (ثيوفانس) ان هذه الجزيرة كانت في سنة (٤٩٠ م) في أيدي الروم ، استولى عليها حاكمهم Dux على فلسطين بعد قتال شديد[3] . ويدل خبر هذا المؤرخ على ان الروم انتزعوا هذه الجزيرة من (امرىء القيس) أو من خلفائه بعد مدة ليست طويلة من استيلاء (امرىء القيس) عليها،ولعلهم استولوا عليها بعد وفاة هذا العامل على أثر نزاع نشب بين أولاده وورثته ، أضعف مركز الإمارة ، فانتهز الروم هذه الفرصة،وانتزعوا ما تمكنوا من انتزاعه من أملاك .

واذا كانت هذه الجزيرة ، قد كانت في جملة أملاك الروم في سنة (٤٩٠م) كما يدعي (ثيوفانس) ذلك ، وجب أن تكون استعادة حاكم فلسطين لها في أيام القيصر (زينو) (زينون) Zeno الذي ولي الحكم من سنة (٤٧٤) حتى سنة (٤٩١) . أما سنة (٤٩١م) فقد انتقل فيها الحكم الى القيصر (أنسطاس)[4].

وكان (امرؤ القيس) المذكور سيد قبيلة سماها المؤرخ (ملخوس الفيلادلفي) (نكليان) (نخليان) Nokalian . ويظهر أن هذا الاسم هو (النخيلة)[5] موضع معروف قرب (الكوفة) على سمت الشام ، وهو موضع ينطبق عليه ما ذكره (ملخوس) من أنه كان في ارض في سلطان الفرس[6] .

---

١ Malchus of Philadelphia, In Fragmenta Historicorum Graecorum, Vol., 4, Paris, 1951, PP. 112, Musil, Hegaz, P. 306, Bury, History of the Later Roman Empire, London, 1931, Vol., I, P. 8, 95, Socrates, IV, 36, Sozomen, VI, 38.

٢ Runciman, Byzantine Civilisation, London, 1959, P. 301.

٣ Theophanes, Chronographia, P. 121, Musil, Hegaz, P. 307.

٤ Runciman, Byzantine Civilisation, P. 301.

٥ البلدان (٨/٢٧٦ وما بعدها) .

٦ Blau, In ZDMG., 22, 1868, S. 578.

ولم يذكر (ملخوس الفيلادلفي) اسماء الأرضين التي كانت في حكم (امرىء القيس) ، ويرى (موسل) أن هذا الرئيس كان ينزل في بـادىء الأمر مع قبيلته في (الوديان) و (الحجيرة) ايام كانت علاقاتـه بالفرس حسنة . ومن (الحجيرة) هاجر مع قبيلته الى (دومة الجندل) ، ومنها توسع فاستولى عـلى أرضين من (فلسطين الثالثة) Palestina Tertia وهي (العربية الحجرية) . ثم استولى على جزيرة Iotaba ، وهي على رأيه جزيرة (تاران) (تيران)[1]. وذكر (ياقوت) ان سكانها قوم يعرفون بـ (بني جدان)[2] .

ولعل هذه الجزيرة هي جزيرة Ainu التي ذكرها (بطلميوس)[3] ، أخذ تسميته هذه من (حنو) (حاينو) Hainu (حينو) الاسم الذي كانت تعرف به عند الأنباط[4] .

وامرؤ القيس هذا ، هو مثل واحد من امثلة عديدة على سادات قبائل راجعوا البيزنطيين لاستمداد العون منهم ، وللحصول منهم عـلى اعتراف رسمي بتنصيبهم رؤساء على الأعراب النازلين في ديار خاضعة لسلطانهم او لمساعدتهم في مقارعـة عرب الحيرة او الفرس .

وقد ذكر اهل الأخبار اسماء رجال قالوا إنهم ذهبوا الى الروم لهـذه الغاية ، وبعضهم ممن كان يقيم في ارضين بعيدة عن سلطانهم . والظـاهر ان مثل هذا الاعتراف كان يكسب الرئيس قوة ، ويمنحه منزلة ومكانة في تلك الأيام ، وان كان الروم على مبعدة من الرئيس وليس لهم حول مادي يقدمونه اليه .

ولا نجد في الموارد اليونانية اسماء من حكم من رؤساء القبائل في بلاد الشأم بصورة منتظمة قبل الغساسنة ، إلا أن الأخباريين يذكرون ان الغساسنة لما جاؤوا الى بلاد الشأم من اليمن بعد (انتقاص العرم) ، وجدوا (الضجاعمة) قد ملكوا البلاد قبلهم . وهم (آل سليح بن حلوان) ، وهم من قضاعة ، فقتلوهم وأخذوا مكانهم[5]. ولا بد ان يكون الضجاعمة قد سُبِقُوا بغيرهم ممن لم يقف اهل الأخبار

---

١ Musil, Hegaz, P. 306.
٢ البلدان (٢/٣٥٢) .
٣ Ptolemy, VI, 7, 43.
٤ Musil, Hegaz, P. 307.
٥ حمزة (ص ٧٦) .

على اسمائهم ، فقد كانت القبائل تهاجم احداها الأخرى ، فتأخذ مكانها ، ولا يستبعد أن يكون (الضجاعمة) قد انتزعوا السلطان من قبائل اخرى لم تبلغ أنباؤها أهل الأخبار .

ان حدود الامبراطورية البيزنطية الجنوبية مع العرب ، لم تتغير ولم تتبدل تبدلاً محسوساً عما كانت عليه في زمان الرومان . وهي بصورة عامة الحدود الجنوبية للمقاطعة العربية . وكانت لهم الجزر المقابلة للمقاطعة العربية في (خليج القلزم)، وقد اتخذوها مراكز لجباية الضرائب من أصحاب السفن ولحماية البحر من لصوصه مثل جزيرة Iotba التي تحدثت عنها . ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين للبيزنطيين الى تقدم الروم أكثر من ذلك في جزيرة العرب .

وكان للبيزنطيين بعض المرافىء على سواحل البحر الأحمر ، منها ميناء (كليزما) Clysma ، وهو (القلزم) Qulzum ، ويقع على مسافة قليلة من (السويس) ، تأتي اليه السفن محملة ببضائع الهند وبالسلك وبالمواد الأخرى المستوردة من السواحل الافريقية والعربية الجنوبية . وبه يقيم (الوكيل) Agens in Rebus ، الوكيل التجاري الذي عليه مراقبة سير السفن والتجارة ، ووضع التعليمات لتنظيم التجارة البحرية ، وعرف بـ Logothete في نهاية القرن الرابع للميلاد[1] .

وكانت تجارة الحرير ، من أهم المواد المطلوبة في أسواق البيزنطيين . وقد كان الساسانيون قد احتكروها تقريباً ، وعبثاً حاول الامبراطور (جستنيان) (يستنيانوس) Justinian تحطيم ذلك الاحتكار ، وأخذه من أيديهم بالتوسل الى (نجاشي) الحبشة ، لارسال سفنه الى (سيلان) ولشراء السلك منها ، ومنافسة التجار الفرس الذين كانوا قد سيطروا على تجارة هذه المادة المستوردة من الصين الى هذه الجزيرة . فكانوا ينقلونها الى بلادهم ، بل الى (القلزم) و (أيلة) وموانىء أخرى وأسواق تابعة للبيزنطيين ، فيربحون من هذه التجارة ربحاً حسناً[2] .

وكان القيصر (يوسطنيان) (٥٢٧ — ٥٦٧ م)[3] ، قد نصب (أبا كرب

---

١ Bury, II, 318.

٢ Bury, II, PP. 320.

٣ Runcimann, Byzantine Civilisation, P. 301.

ابن جبلة) ، كما يقول المؤرخ (بروكوبيوس) ، (عاملاً) ، اي (فيلاركا) (فيلارخا) Phylarch على عرب (سرسينس) Saracens فلسطين ، وكان (أبو كرب) كما يقول (بروكوبيوس) ، رجلاً صاحب مواهب وكفاية ، تمكن من حفظ الحدود ومن منع الأعراب من التعرض لها ، وكان هو نفسه يحكم قسماً منهم ، كما كان شديداً على المخالفين له . وذكر أيضاً انه كان يحكم أرض غابات النخيل جنوب فلسطين ، وهي أرض واسعة تمتد مسافات شاسعة في البر ليس بها غير النخيل . وقد قدمها هدية الى الامبراطور ، فقبلها منه، وعدّها من أملاكه ، مع انه كان يعرف جيداً انها فيافٍ وبادية لا يمكن الاستفادة منها ، ليس فيها غير النخيل ، وليس لهذه النخيل فائدة تذكر . ويجاور عربها عرب آخرون يسمون (معديني) (مديني) Maddeni : هم اتباع لـ (حمير) Homeritae [1] .

وهذه الأرض التي حكمها (ابو كرب بن جبلة) ، هي الأرض التي حكمها (امرؤ القيس) سابقاً نفسها . او يظهر ان الروم لم يتمكنوا من ضبطها ومن تعيين حاكم بيزنطي عليها، فاضطر الى الاعتراف بالأمر الواقع ، فثبتوا (أبا كرب) في مكانه ، واعترفوا به اعترافاً رسمياً (عاملاً) على هذه المنطقة التي تقع في جنوب ارض الغساسنة ، وفي الأردن واعالي الحجاز . ويظهر من ذلك ايضاً ان (ابا كرب) كان عاملاً مستقلاً بشؤونه عن الغساسنة . ونكون بذلك أمام إمارتين مستقلتين .

واذن يكون (أبو كرب) من المعاصرين للحارث بن جبلة ملك الغساسنة . وقد كان حكمه قبل السنة (٥٤٢ م) بدليل ارساله رسولاً الى ابرهة لتهنئته عند ترميمه سد مأرب الذي انجز في هذه السنة .

إن اسم (أبو كرب بن جبلة) يثير فينا الظن بأن هذا الرجل كان من آل غسان ، فهذا الاسم هو من الأسماء التي ترد بكثرة عندهم . وقد يحملنا على تصور انه كان شقيقاً للحارث بن جبلة ، غير اني لا أستطيع الجزم بذلك ، لسكوت الموارد السريانية واليونانية عن التصريح بذلك او التلميح اليه .

لقد كان من نتائج توثيق الروم صلاتهم بمملكة (اكسوم) ، تهديدهم اليمن

---

١ Procopius, I, XIX, 8-16, P. 180-181, Glaser, Mitt., S. 437, S. 78-79, Sep.

بغزوها إن قاومت مصالحهم وتعرضت لسفنهم ولتجارتهم ، وذلك بتحريض الجيش على النزول بها . وقد سبق للأحباش ان استولوا عليهـــا ، كما سبق للرومان أن استولوا على بعض مواضع من العربية الجنوبية مثل (عدن) في ايام (كلوديوس) (٤١ – ٥٤ م) او قبـــل ذلك بقليل[1] . ولا يستبعد ان يكون للروم دخل في الغزو الذي قام به الأحباش لليمن والذي بقي من سنة (٣٠٠) حتى سنة (٣٧٠ب.م)[2]. وقد ذكر ان القسطنطينية كانت المحرضة لحكومة الحبشة على غزو اليمن أيضاً في سنة (٥٢٥ م) ، وقد امتد حتى سنة (٥٧٠ م) او (٥٧٥ م)[3] .

ولما عاد الأحباش الى اليمن حيث بقوا فيها مدةً قصيرة ، كرّ الفرس عليهم فطردوهم منهـــا في حوالي سنة (٥٧٥ م) (٥٩٥ م) ، وصارت اليمن من سنة (٥٧٥ م) (٥٩٥ م) حـــتى الفتح الإسلامي مقاطعة تابعة للساسانيين[4] . وقد أصيبت مصالح البيزنطيين بأضرار بليغة من هذا التحول السياسي العسكري ، وأصيبت بضرر بليغ آخر كذلك في أيام (كسرى برويز) (٥٩٠ – ٦٢٨ م) الذي هاجم الامبراطورية البيزنطية واستولى على مصر وفلسطين ، وقطع بذلك عنها شرايين التجارة العالمية المهمة.والبيزنطيون وان استعادوا ما فقدوه في مصر وبلاد الشأم بعد مدة قصيرة ، فعاد الساسانيون الى مواضعهم ، الا ان الحروب المتوالية كانت قد أنهكت الطرفين : البيزنطيين والساسانيـــين ، وأضرت بالوضع الاقتصادي ، وجعلت الناس يتذمرون في كل مكان من سوء سياسة الامبراطوريتين ، ويودون التخلص من الفرس واليونان ، لذلك لم يكن من المستغرب سقوط الأرضين التي كانت خاضعة لهم بسرعة مدهشة في أيدي المسلمين .

ولما وصلت الجيوش الاسلامية بلاد الشأم ، رحب أهلها بصورة عامـــة بها . وقد نظر البيزنطيون الى الاسلام على انه نوع من أنواع (الآريوسية) Arrianism المنسوبة الى الكاهن (آريوس) المتوفى سنة (٣٣٦ م) . أو انـه مذهب من المذاهب النصرانية المنشقة عن الكنيسة الرسمية . وقد تعوّدوا على سماع أخبار وقوع

---

١ العرب والملاحة (ص ٧٩) .

٢ Stuhlmann, S. 13.

٣ Stuhlmann, S. 14.

٤ Stuhlmann, S. 14, Phillips, P. 223.

الانشقاق في الكنيسة ، وظهور مذاهب جديدة[1] . لهذا لا يستغرب ما أظهره أساقفة بلاد الشأم من تساهل في تسليم المدن الى المسلمين . وما بدر من القبائل العربية المتنصرة من تعاون مع المسلمين في طرد البيزنطيين عن بلاد الشأم[2] .

---

١ Vasiliev, A. A. Histoire de L'empire Byzantin, 279, Fr. Stark, Rome, P. 388.

٢ Diehl and G. Marcais, Le Monde Oriental, Paris, 1936, P. 104, Fr. Stark, Rome, P. 388.

obeikandl.com